

قراءات

الجمهورية الصعبة: إيران في تحولاتها الداخلية وسياساتها الخارجية

طلال عتريسي

بيروت: دار الساقي، 2006. 272 صفحة.

يتناول هذا الكتاب استجابة إيران للمتغيرات السياسية والجيوستراتيجية التي طرأت على نظام التوازنات الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط في ضوء حربي الولايات المتحدة الأميركية على أفغانستان والعراق، ويعرض للفرص والتحديات المطروحة على الجمهورية الإسلامية نتيجة التركيب الإقليمي الجديد الناتج من تموضع القوات الأميركية على الحدود الإيرانية، وفي قلب الشرق الأوسط عقب احتلال العراق.

وهذه المساهمة في تحليل السياسة الإقليمية لإيران ودوافعها وحدودها، إنما تراعي ضرورة الوقوف على آليات التحولات السياسية الداخلية لإبراز تأثير هذه التحولات في عملية صنع القرار وبالتالي في إدارة العلاقة بالغرب عامة، والولايات المتحدة تحديداً، ومصالح الأمن القومي لإيران وفي مقدمها البرنامج النووي.

ويؤكد المؤلف أن إيران، منذ انتهاء الحرب الباردة، وبعد 11 أيلول/سبتمبر واحتلال أفغانستان والعراق تحركت بقوة في اتجاهين: الأول هو البحث عن البدائل الكفيلة بالحد من أثر هذه المتغيرات الدولية والإقليمية في أمنها الإقليمي ودورها وموقعها، فتوجهت نحو أوروبا وروسيا والصين وكوريا الشمالية؛ والاتجاه الثاني هو تجنب المواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة على الرغم من الحصار الأميركي لها، وتفادي أي حرب إقليمية بعد كارثة الحرب العراقية – الإيرانية التي استمرت 8 أعوام. ولذلك سوف تحتاج إلى سياسات معقدة للتعامل مع الجوار الإقليمي لحماية أمنها القومي، ومنها التزام سياسة "الحياد" تجاه الحرب الدولية على العراق بعد احتلال الكويت، وكذلك الحرب الأميركية لإسقاط نظام صدام لاحقاً، مع الاستمرار في رفض القوات الأجنبية في منطقة الخليج ورفض الالتحاق بالسياسة الأميركية.

ويرى الباحث أن إيران كانت من أبرز الدول التي شعرت بأنها قد تكون مستهدفة من الحرب الأميركية "الوقائية" ضد الإرهاب بعد 11 أيلول/سبتمبر 2001، وهي متهمة أصلاً بدعم الإرهاب وتشجيعه. وعندما تم تحديد "الهدف" الأميركي – الدولي الذي ستشن الحرب عليه، أي نظام طالبان في أفغانستان وتنظيم القاعدة المتحالف معه، انطلقت في إيران فوراً المناقشة بشأن كيفية حفظ "المصالح القومية" إزاء هذه الحرب، وهي المناقشة نفسها التي ستكرر إزاء الحرب التي ستشن على العراق، وذلك من خلال السؤالين التاليين:

- هل من مصلحة إيران التصادم مع القوة الأميركية المهاجمة؟
- هل من مصلحة إيران الدفاع عن القوة التي تتعرض للهجوم والوقوف إلى جانبها، مقارنة بالمخاطر الاستراتيجية التي ستنتج عن الاقتراب الأميركي من الحدود الإيرانية؟

وكان من شأن الإجابة عن هذين السؤالين أن سمحت بصوغ السلوك السياسي الإيراني على النحو التالي:

- (1) لا مصلحة لإيران في المواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة.
 - (2) ليس في استطاعة إيران أن تمنع الحرب على الدولة المجاورة (وليس لها مصلحة في الانضمام إلى القوة المستهدفة).
 - (3) من مصلحة إيران التخلص من نظام شكل (ولا يزال) تهديداً لأمنها القومي.
- ويخلص الباحث إلى أن حصيلة الموقف من الحرب على أفغانستان و ثم على العراق، ستدرجها إيران تحت عنوان "الحياد الإيجابي"، على أن تعمل إذا استطاعت للحؤول دون قيام نظام جديد معاد لها بعد سقوط نظام صدام، ولإيجاد مواقع نفوذ لها في النظام الجديد. ويشير إلى أن هذه الصيغة التي استقرت عليها "المصالح القومية والوطنية" الإيرانية تم التوصل إليها بعد سجال داخلي واسع بين من يدعو إلى استمرار القطيعة مع الولايات

المتحدة، مستنداً إلى المخاوف من السياسات الأميركية ومن قواعدها العسكرية في الدول المجاورة، وبين من يرى أن على إيران ألا تفوت "الفرصة الذهبية" للحوار مع الولايات المتحدة وتطبيع العلاقات معها. ويذهب الدكتور عتريسي في دراسته إلى أن "الحياد الإيجابي" من جانب إيران في التعامل مع الحرب على العراق، هو سياسة تعكس بالدرجة الأولى مخاوف إيران من الاستهداف الأميركي لها، وحرصها على عدم التورط في أي مواجهة مباشرة، وعلى عدم توفير الذرائع السياسية أو الأمنية التي تبرر مثل هذه المواجهة، أو تبرر توجيه ضربة أو فرض مزيد من العقوبات. وإنه على قاعدة الحرص على امتلاك قوة الردع، وعلى منع الولايات المتحدة من مهاجمة إيران، ستلتقي الاتجاهات الإيرانية في مواجهة مرحلة ما بعد احتلال العراق، وإن اختلفت هذه الاتجاهات حول شروط الردع ومكوناته بين قائل بوجوب الوقوف إلى جانب المقاومة ضد الاحتلال والتركيز على الوحدة الداخلية، وبين آخر ينادي بتطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة بعد "تعظيم المشاركة السياسية" في الداخل وتنفيذ استراتيجية إصلاحية.

واستناداً إلى هذا المنحى في التحليل تصوّر استراتيجية إيران الإقليمية منذ سقوط كابول إلى ما بعد سقوط بغداد، على أنها استراتيجية دفاعية تتجنب التورط مع الاستعداد الدائم للردع والدفاع. ومع ذلك لن تشعر إيران بالاطمئنان لأن الولايات المتحدة، "جارتها الجديدة"، لن تتركها ببساطة تتحول إلى "القوة الإقليمية الأبرز" في ظل استمرار القطيعة بينهما ومواصلة إيران دعمها منظمات المقاومة الفلسطينية، ورفض التسوية السياسية في الشرق الأوسط، والتمسك ببرنامج تطوير الطاقة النووية. وعليه لا يتوقع في المستقبل القريب ما يشير إلى تبدل جوهرى في السياسات المتقابلة بين الولايات المتحدة وإيران، بما فيها أزمة الملف النووي الإيراني التي "ستبقى على حالها من التوتر والتفاوض" سعيًا لـ "تقييد إنتاج إيران للطاقة النووية وتأخير هذا الإنتاج وجعله في حده الأدنى لئلا تتمكن من تحويله إلى سلاح نووي".

إلا أنه في معرض الحديث عن "المكاسب الاستراتيجية" التي حصلت عليها إيران فصارت القوة الإقليمية الأولى في غياب القوة العراقية، يكتفي المؤلف بالإشارة إلى أن الفراغ في مرحلة ما بعد تفكيك نظام الدولة القديم في العراق لم تملأه واشنطن وحدها بل شاركتها إيران فيه بقوة، ومنبهاً إلى أنه مهما تشددت الولايات المتحدة ضغوطها في إطار المواجهة النووية مع إيران، فإنها لن تغير الاختلال في المعادلة العراقية المائلة إلى مصلحة إيران وهي القوة الإقليمية التي يحتاج جميع اللاعبين إلى التعاون معها.

هذه هي في نظرنا الإشكالية الرئيسية التي تدور بشأنها مقاربة الدكتور عتريسي لسياسة إيران الإقليمية منذ أدركت قيادة النظام الديني أن انتهاء الحرب الباردة يجعل الولايات المتحدة ذات تأثير مباشر وربما من دون منازع في كل القضايا الإقليمية والدولية، وأن دول العالم، بما فيها الاتحاد الأوروبي واليابان وروسيا والصين، تسعى لتجنب الصدام مع هذه القوة العظمى الوحيدة والمهيمنة في العالم، وأن من مصلحة إيران في ضوء هذا الاختلال في التوازن الدولي أن تتجنب بدورها أي استفزاز مباشر للقوة الأميركية، وأن تبتعد عن التصادم معها. تضاف إشكالية الفرص والتحديات التي استجدت عقب الاحتلال الأميركي للعراق والتي فتحت أبواب الاختلاف والاجتهاد في الداخل الإيراني فيما يتعلق بكيفية إدارة العلاقة الصعبة بالولايات المتحدة، "الجار الجديد" للجمهورية الإسلامية. ومن هذه تأتي إشكاليات فرعية مثل تلك المتعلقة بالتقديرات الإيرانية المتباينة للموازنة بين حجم الفرص المتاحة لطهران، في مقابل حجم التهديدات التي ستعرض لها بعد الاحتلال الأميركي للعراق وما أنتج من شعور بالعزلة والحصار من الشرق والغرب والشمال والجنوب. أو تلك التي تبني على "أوراق" تملكها إيران في العراق ولبنان وفلسطين وصولاً إلى مقولة أنه لا يمكن تجاوز طهران في أي مشروع إقليمي أمني أو سياسي لأن في قدرتها على الأقل أن تعرقل ما لا تشعر معه بالاطمئنان، أو ما ينذر بها بالتهميش والاستبعاد.

وكل هذه الإشكاليات يتناولها الباحث بأسلوب العرض الإيجابي الذي يغيب التحليل النقدي أو مناقشة المفاهيم، مثل مفهوم "الحياد الإيجابي" الذي له مدلول خاص عند الإيرانيين، أو مفاهيم أخرى مثل "عدم التكيف" إزاء الهيمنة الأميركية أو "استراتيجية الردع" أو "تفويت الفرص" التي تحتاج إلى تدقيق أو تحديد لمدلولاتها في السياق الذي ترد فيه، ذلك بأن القارئ المتأنى أو المتطلب يبقى في دائرة الغموض في شأن مفهوم ملتبس مثل "عدم التكيف"، وإذا خرج منه إلى التمهيص في معنى "استراتيجية الردع" الدفاعية الإيرانية فإنه يجد نفسه مدفوعاً إلى المقارنة بتحليلات أخرى تذهب إلى القول إن هذه الاستراتيجية إياها ذات مضمون هجومي وليس دفاعياً كونها تخترق حدود التوازنات العربية في العراق ولبنان وفلسطين؛ والمقصود هنا ليس الإغراق في النص الأكاديمي،

وإنما التنبيه إلى تجنب نزعة الاستسهال السائدة في التعامل مع النص السياسي الاستراتيجي بحيث يضيع الخط الفاصل بين الخطأ والصواب في هذا الحقل من المعرفة.

والكتاب الذي يقع في 272 صفحة تتوزع على 8 فصول، تراه مثقلاً في المتن بعدد من الوثائق والملاحق يصل مجموع الصفحات التي تتضمنها إلى نحو 160 صفحة، في حين أنه كان يستحسن أن تأتي الملاحق التي تضم الوثائق في جزء أخير من الكتاب. فضلاً عن أن الكتاب لا يفتقد الفهارس فحسب، بل يبدو فائضاً بدراسة عن الإدراك العربي الرسمي وغير الرسمي لإيران، لا تدرج في نظرنا في السياقات التي تحكم هذا النوع من الدراسات السياسية، وكان الأحرى بالمؤلف أن يتركها لتكوّن نسيج كتاب آخر خاص بها كونها دراسة قائمة بذاتها.

غير أنه في باب القيمة الموضوعية، قد يؤخذ على محاولة الدكتور عترسي المفيدة جداً من الناحية الوثائقية، أنها تفتقر إلى إطار نظري يحدد الأهداف والاستراتيجيات الكبرى في السياسة الخارجية الإيرانية، وهي الحفاظ على وحدة الأراضي الإيرانية والسيادة القومية، والدفاع عن حقوق المسلمين وحركات التحرر ومعارضة إسرائيل والغرب، ولا سيما الولايات المتحدة، وبناء مجتمع إسلامي على أسس شيعية. وعلى طريق أهدافها الثلاثة، تحتاج جمهورية إيران الإسلامية إلى التعاون والتنسيق وهو الحد الأدنى الذي يمكن تصوّره لتحقيق هذه الأهداف؛ الدفاع عن السيادة القومية ووحدة الأراضي على سبيل المثال يكفيه إقامة التعاون والتنسيق، في حين أن الأمن الجماعي يستلزم الائتلاف. في إطار أهداف إيران الثلاثة، ما هي الدول التي يمكن أن تشكل ائتلاًفاً مع إيران ومن ثم الاتحاد معها؟

ميشال نوفل

رئيس القسم العربي والدولي

في جريدة "المستقبل" اللبنانية

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx